سورة غافر

ترتيبها ٤٠ آياتها ٨٥

قد كره بعض السلف منهم محمد بن سيرين أن يقال الحواميم وإنما يقال آل حم قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه آل حم ديباج القرآن وقال ابن عباس رضي الله عنهما إن لكل شيء لباباً ولباب القرآن آل حم أو قال الحواميم وقال مسعر بن كدام كان يقال لهن العرائس روى ذلك كله الإمام العالم أبو عبيد القاسم بن سلام رحمه الله تعالى في كتاب فضائل القرآن . وقال حميد بن زنجويه حدثنا عبيد الله بن موسى حدثنا اسرائيل عن أبي إسحاق عن أبي الأحوص عن عبد الله رضي الله عنه قال : إن مثل القرآن كمثل رجل انطلق يرتاد لأهله منزلاً فمر بأثر غيث فبينما هو يسير فيه ويتعجب منه اذ هبط على روضات دمثات فقال عجبت من الغيث الأول فهذا أعجب وأعجب فقيل له إن مثل الغيث الأول مثل عظم القرآن ، وإن مثل هؤلاء الروضات الدمثات مثل آل حم في القرآن أورده البغوي . وقال ابن لهيعة عن يزيد بن أبي حبيب ان الجراح بن أبي الجراح حدثه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : لكل شيء لباب ولباب القرآن الحواميم وقال ابن مسعود رضي الله عنه إذا وقعت في آل حم فقد وقعت في روضات أتأنق فيهن . وقال أبو عبيد حدثنا الأشجعي حدثنا مسعر هو ابن كدام عمن حدثه أن رجلاً رأى أبا الدرداء رضي الله عنه يبني مسجداً فقال له ماهذا ؟ فقال أبنيه من أجل آل حم وقد يكون هذا المسجد الذي بناه أبو الدرداء رضي الله عنه هو المسجد المنسوب إليه داخل قلعة دمشق ، وقد يكون صيانتها وحفظها ببركته وبركة ما وضع له فإن هذا الكلام يدل على النصر على الأعداء كما قال رسول الله ﷺ لأصحابه في بعض الغزوات «إن بيتم الليلة فقولوا حم لاينصرون - وفي رواية - لاتنصرون» وقال الحافظ أبو بكر البزار حدثنا أحمد بن الحكم بن ظبيان بن خلف المازني ومحمد بن الليث الهمداني قالا حدثنا موسى بن مسعود حدثنا عبد الرحمن بن أبي بكر المليكي عن زراة بن مصعب عن أبي سلمة عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ «من قرأ آية الكرسي وأول حم المؤمن عصم ذلك اليوم من كل سوء» ثم قال لانعلمه يروى إلا بهذا الإسناد ورواه الترمذي من حديث المليكي وقال تكلم فيه بعض أهل العلم من قبله حفظه .

بسم الله الرحمن الرحيم

حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٢﴾ غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿٣﴾

أما الكلام على الحروف المقطعة فقد تقدم في أول سورة البقرة بما أغنى عن إعادته ههنا وقد قيل إن ﴿حم﴾ اسم من أسماء الله عز وجل وانشدوا في ذلك بيتاً :

يذكرني حم والرمح شاجر فهلا تلاحم قبل التقدم

وقد ورد في الحديث الذي رواه أبو داود والترمذي من حديث الثوري عن أبي إسحاق عن المهلب بن أبي صفرة قال : حدثني من سمع رسول الله ﷺ يقول «إن بيتم الليلة فقولوا حم لاينصرون» وهذا إسناد صحيح ، واختار أبو عبيد أن يروى فقولوا حم لاينصروا أي إن قلتم ذلك لاينصروا جعله جزاء لقوله فقولوا .

وقوله تعالى : ﴿تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم﴾ أي تنزيل هذا الكتاب وهو القرآن من الله ذي العزة والعلم فلا يرام جنابه ولايخفى عليه الذر وإن تكاثف حجابه . وقوله عز وجل ﴿غافر الذنب وقابل التوب﴾ أي يغفر ماسلف من الذنب ويقبل التوبة في المستقبل لمن تاب إليه وخضع لديه . وقوله جل وعلا : ﴿شديد العقاب﴾ أي لمن تمرد وطغى وآثر الحياة الدنيا وعتا عن اوامر الله تعالى وبغى وهذه كقوله ﴿نبىء عبادي أني أنا الغفور الرحيم * وأن عذابي هو العذاب الأليم﴾ يقرن هذين الوصفين كثيراً في مواضع متعددة من القرآن ليبقى العبد بين الرجاء والخوف ، وقوله تعالى ﴿ذي الطول﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما يعني السعة والغنى ، وهكذا قال مجاهد وقتادة ، وقال يزيد بن الأصم ذي الطول يعني الخير الكثير . وقال عكرمة ﴿ذي الطول﴾ ذي المن . وقال قتادة ذي النعم والفواضل ، والمعنى أنه المتفضل على عباده

المتطول عليهم بما هم فيه من المنن والأنعام التي لايطيقون القيام بشكر واحدة منها ﴿**وإن تعدوا نعمة الله لاتحصوها**﴾الآية . وقوله -جلت عظمته ﴿**لا إله إلا هو**﴾ أي لا نظير له في جميع صفاته فلا إله غيره فلا إله ولارب سواه ﴿**اليه المصير**﴾ أي المرجع والمآب فيجازي كل عامل بعمله ﴿**وهو سريع الحساب**﴾ وقال أبو بكر بن عياش سمعت أبا إسحاق السبيعي يقول : جاء رجل الى عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال يا أمير المؤمنين إني قتلت فهل لي من توبة فقرأ عمر رضي الله عنه ﴿**حم * تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم * غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب**﴾ وقال اعمل ولاتيأس . رواه ابن أبي حاتم واللفظ له وابن جرير وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا موسى بن مروان الرقي حدثنا عمر يعني ابن أيوب حدثنا جعفر ابن برقان عن يزيد بن الأصم قال : كان رجل من أهل الشام ذو بأس وكان يفد إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه ففقده عمر فقال مافعل فلان بن فلان، فقالوا ياأمير المؤمنين تتابع في هذا الشراب . قال فدعا عمر كاتبه فقال اكتب من عمر بن الخطاب الى فلان ابن فلان سلام عليك فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذي الطول لا إله إلا هو إليه المصير . ثم قال لأصحابه ادعوا الله لأخيكم أن يقبل بقلبه ويتوب الله عليه ، فلما بلغ الرجل كتاب عمر رضي الله عنه جعل يقرؤه ويردده ويقول : غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ، قد حذرني عقوبته ووعدني أن يغفر لي . ورواه الحافظ أبو نعيم من حديث جعفر بن برقان وزاد فلم يزل يرددها على نفسه ثم بكى ثم نزع فأحسن النزع ، فلما بلغ عمر خبره قال هكذا فاصنعوا اذا رأيتم أخاً لكم زل زلة فسددوه ووثقوه وادعوا الله له أن يتوب عليه ولا تكونوا أعواناً للشيطان عليه . وقال ابن أبي حاتم حدثنا عمر بن شيبة حدثنا حماد بن واقد حدثنا أبو عمر الصفار حدثنا ثابت البناني قال كنت مع مصعب بن الزبير رضي الله عنه في سواد الكوفة فدخلت حائطاً أصلي ركعتين فافتتحت حم المؤمن حتى بلغت لا إله إلا هو إليه المصير فإذا رجل خلفي على بغلة شهباء عليه مقطعات يمنية فقال إذا قلت غافر الذنب فقل ياغافر الذنب اغفر لي ذنبي ، وإذا قلت وقابل التوب فقل ياقابل التوب اقبل توبتي ، وإذا قلت شديد العقاب فقل ياشديد العقاب لاتعاقبني ، قال فالتفت فلم أر أحداً فخرجت الى الباب فقلت مر بكم رجل عليه مقطعات يمنية ، قالوا مارأينا أحداً فكانوا يرون أنه إلياس ، ثم رواه من طريق أخرى عن ثابت بنحوه وليس فيه ذكر إلياس والله سبحانه وتعالى أعلم .

مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَا يَغۡرُرۡكَ تَقَلُّبُهُمۡ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ﴿٤﴾ كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ وَٱلۡأَحۡزَابُ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۖ وَهَمَّتۡ كُلُّ أُمَّةِۭ بِرَسُولِهِمۡ لِيَأۡخُذُوهُۖ وَجَٰدَلُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ لِيُدۡحِضُواْ بِهِ ٱلۡحَقَّ فَأَخَذۡتُهُمۡۖ فَكَيۡفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٥﴾ وَكَذَٰلِكَ حَقَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٦﴾

يقول تعالى مايدفع الحق ويجادل فيه بعد البيان وظهور البرهان ﴿**إلا الذين كفروا**﴾ أي الجاحدون لآيات الله وحججه وبراهينه ﴿**فلا يغررك تقلبهم في البلاد**﴾ أي في أموالها ونعيمها وزهرتها كما قال جل وعلا : ﴿**لايغرنك تقلب الذين كفروا في البلاد * متاع قليل ثم مأواهم جهنم وبئس المهاد**﴾ وقال عز وجل : ﴿**نمتعهم قليلاً ثم نضطرهم الى عذاب غليظ**﴾ ثم قال تعالى مسلياً لنبيه محمد ﷺ في تكذيب من كذبه من قومه بأن له أسوة فيمن سلف من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فإنه قد كذبهم أممهم وخالفوهم وما آمن بهم منهم إلا قليل فقال ﴿**كذبت قبلهم قوم نوح**﴾ وهو أول رسول بعثه الله ينهي عن عبادة الأوثان ﴿**والأحزاب من بعدهم**﴾ أي من كل أمة ﴿**وهمت كل أمة برسولهم ليأخذوه**﴾ أي حرصوا على قتله بكل ممكن ومنهم من قتل رسوله ﴿**وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق**﴾ أي ماحلوا بالشبهة ليردوا الحق الواضح الجلي .

وقد قال أبوالقاسم الطبراني حدثنا علي بن عبد العزيز حدثنا عارم أبو النعمان حدثنا معتمر بن سليمان قال سمعت أبي يحدث عن حنيش عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال «من أعان باطلاً ليدحض به حقاً فقد برئت منه ذمة الله تعالى وذمة رسوله ﷺ» وقوله جلت عظمته ﴿**فأخذتهم**﴾ أي أهلكتهم على ماصنعوا من هذه الآثام والذنوب العظام ﴿**فكيف كان عقاب**﴾ أي فكيف بلغك عذابي لهم ونكالي بهم قد كان شديداً موجعاً مؤلماً . قال قتادة كان شديداً والله . وقوله جل جلاله : ﴿**وكذلك حقت كلمة ربك على الذين كفروا أنهم أصحاب النار**﴾ أي كما حقت كلمة العذاب على الذين كفروا من الأمم السالفة كذلك حقت على المكذبين من هؤلاء الذين كذبوك وخالفوك يامحمد بطريق الأولى والأحرى لأن من كذبك فلا وثوق له بتصديق غيرك ، والله أعلم .

ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨﴾ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُۥ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٩﴾

يخبر تعالى عن الملائكة المقربين من حملة العرش الأربعة ومن حوله من الملائكة الكروبيين بأنهم يسبحون بحمد ربهم أي يقرنون بين التسبيح الدال على نفي النقائص والتحميد المقتضي لإثبات صفات المدح ﴿ويؤمنون به﴾ أي خاشعون له أدلاء بين يديه وأنهم ﴿يستغفرون للذين آمنوا﴾ أي من أهل الأرض ممن آمنوا بالغيب فقيض الله تعالى ملائكته المقربين أن يدعوا للمؤمنين بظهر الغيب ولما كان هذا من سجايا الملائكة عليهم الصلاة والسلام كانوا يؤمنون على دعاء المؤمن لأخيه بظهر الغيب كما ثبت في صحيح مسلم «إذا دعا المسلم لأخيه بظهر الغيب قال الملك آمين ولك بمثله» . وقد قال الإمام أحمد حدثنا عبد الله بن محمد وهو ابن أبي شيبة حدثنا عبيدة بن سليمان عن محمد بن إسحاق عن يعقوب بن عتبة عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما قال رسول الله ﷺ «صدق أمية بن أبي الصلت في شيء من شعره» فقال :

زحل وثور تحت رجل يمينه ... والنسر للأخرى وليث مرصد

فقال رسول الله ﷺ «صدق» فقال :

والشمس تطلع كل آخر ليلة ... حمراء يصبح لونها يتورد

تأبى فما تطلع لنا في رسلها ... إلا معذبة وإلا تجلد

فقال رسول الله ﷺ «صدق» وهذا إسناد جيد وهو يقتضي أن حملة العرش اليوم أربعة فإذا كان يوم القيامة كانوا ثمانية كما قال تعالى : ﴿ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية﴾ وهنا سؤال وهو أن يقال ما الجمع بين المفهوم من هذه الآية ودلالة هذا الحديث ؟ وبين الحديث الذي رواه أبو داود حدثنا محمد بن الصباح البزار حدثنا الوليد بن أبي ثور عن سماك عن عبد الله بن عميرة عن الأحنف بن قيس عن العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه قال : كنت بالبطحاء في عصابة فيهم رسول الله ﷺ فمرت بهم سحابة فنظر إليها فقال «ما تسمون هذه ؟» قالوا السحاب ، قال «والمزن» قالوا والمزن قال «والعنان» قالوا والعنان ، قال أبو داود ولم أتقن العنان جيداً ، قال «هل تدرون بعد ما بين السماء والأرض ؟» قالوا لا ندري ، قال «بعد ما بينهما اما واحدة أو اثنتان او ثلاث وسبعون سنة ثم السماء فوقها كذلك حتى عد سبع سموات ، ثم فوق السماء السابعة بحر ما بين أسفله وأعلاه مثل بين سماء إلى سماء ، ثم فوق ذلك ثمانية أوعال بين أظلافهن وركبهن مثل ما بين السماء إلى سماء ثم على ظهورهن العرش بين أسفله وأعلاه مثل ما بين سماء إلى سماء ثم الله تبارك وتعالى فوق ذلك» . ثم رواه أبو داود والترمذي وابن ماجة من حديث سماك بن حرب به وقال الترمذي حسن غريب ، وهذا يقتضي أن حملة العرش ثمانية كما قال شهر بن حوشب رضي الله عنه : حملة العرش ثمانية : أربعة منهم يقولون سبحانك اللهم وبحمدك لك الحمد على حلمك بعد علمك ، وأربعة يقولون سبحانك اللهم وبحمدك لك الحمد على عفوك بعد قدرتك ولهذا يقولون إذا استغفروا للذين آمنوا ﴿ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلماً﴾ أي رحمتك تسع ذنوبهم وخطاياهم وعلمك محيط بجميع أعمالهم وأقوالهم وحركاتهم وسكناتهم ﴿فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك﴾ أي فاصفح عن المسيئين إذا تابوا وأنابوا وأقلعوا عما كانوا فيه واتبعوا ما أمرتهم به من فعل الخيرات وترك المنكرات ﴿وقهم عذاب الجحيم﴾ أي وزحزحهم عن عذاب الجحيم وهو العذاب الموجع الأليم ﴿ربنا وأدخلهم جنات عدن التي وعدتهم ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم﴾ أي اجمع بينهم وبينهم لتقر بذلك أعينهم بالاجتماع في منازل متجاورة كما قال تبارك وتعالى ﴿والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذريتهم وما التناهم من عملهم من شيء﴾ أي ساوينا بين الكل في المنزلة لتقر أعينهم وما نقصنا العالي حتى يساوي الداني بل رفعنا ناقص العمل فسويناه بكثير العمل تفضلاً منا ومنة . وقال سعيد بن جبير ان المؤمن إذا دخل الجنة سأل عن أبيه وابنه وأخيه أين هم ؟ فيقال إنهم لم يبلغوا طبقتك في العمل فيقول إني إنما عملت لي ولهم فيلحقون به في الدرجة ثم تلا سعيد بن جبير هذه الآية ﴿ربنا وأدخلهم جنات عدن التي وعدتهم ومن صلح من آبائهم وأزواجهم

وذرياتهم إنك أنت العزيز الحكيم﴾ قال مطرف بن عبد الله بن الشخير : أنصح عباد الله للمؤمنين الملائكة ثم تلا هذه الآية ﴿ربنا وأدخلهم جنات عدن التي وعدتهم﴾ الآية وأغش عباده للمؤمنين الشياطين . وقوله تبارك وتعالى : ﴿إنك أنت العزيز الحكيم﴾ أي الذي لا يمانع ولا يغالب وما شاء كان وما لم يشأ لم يكن الحكيم في أقوالك وأفعالك من شرعك وقدرك ﴿وقهم السيئات﴾ أي فعلها أو وبالها ممن وقعت منه ﴿ومن تق السيئات يومئذ﴾ أي يوم القيامة ﴿فقد رحمته﴾ أي لطفت به ونجيته من العقوبة ﴿وذلك هو الفوز العظيم﴾ .

إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَٰنِ فَتَكْفُرُونَ ﴿١٠﴾ قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ﴿١١﴾ ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِىَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ ۖ وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُوا۟ ۚ فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِىِّ ٱلْكَبِيرِ ﴿١٢﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا ۚ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ فَٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١٤﴾

يقول تعالى مخبراً عن الكفار انهم ينادون يوم القيامة وهم في غمرات النيران يتلظون وذلك عندما باشروا من عذاب الله تعالى ما لا قبل لأحد به فمقتوا عند ذلك أنفسهم وأبغضوها غاية البغض بسبب ما أسلفوا من الأعمال السيئة التي كانت سبب دخولهم إلى النار فأخبرتهم الملائكة عند ذلك إخباراً عالياً نادوهم نداء بأن مقت الله تعالى لهم في الدنيا حين كان يعرض عليهم الإيمان فيكفرون أشد من مقتكم أيها المعذبون أنفسكم اليوم في هذه الحالة . قال قتادة في قوله تعالى : ﴿لمقت الله أكبر من مقتكم أنفسكم إذ تدعون إلى الإيمان فتكفرون﴾ يقول لمقت الله أهل الضلالة حين عرض عليهم الإيمان في الدنيا فتركوه وأبوا أن يقبلوه أكبر مما مقتوا أنفسهم حين عاينوا عذاب الله يوم القيامة ، وهكذا قال الحسن البصري ومجاهد والسدي وذر بن عبيد الله الهمداني وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وابن جرير الطبري رحمة الله عليهم أجمعين . وقوله ﴿قالوا ربنا أمتّنا اثنتين وأحييتنا اثنتين﴾ قال الثوري عن أبي إسحاق عن أبي الأحوص عن ابن مسعود رضي الله عنه هذه الآية كقوله تعالى : ﴿كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه ترجعون﴾ وكذا قال ابن عباس والضحاك وقتادة وأبو مالك وهذا هو الصواب الذي لا شك فيه ولا مرية . وقال السدي أميتوا في الدنيا ثم أحيوا في قبورهم فخوطبوا ، ثم أميتوا ثم أحيوا يوم القيامة ، وقال ابن زيد : أحيوا حين أخذ عليهم الميثاق من صلب آدم عليه السلام ثم خلقهم في الأرحام ثم أماتهم ثم أحياهم يوم القيامة ، وهذان القولان من السدي وابن زيد ضعيفان لأنه يلزمهما على ما قالا ثلاث إحياءات وإماتات ، والصحيح قول ابن مسعود وابن عباس ومن تابعهما ، والمقصود من هذا كله أن الكفار يسألون الرجعة وهم وقوف بين يدي الله عز وجل في عرصات القيامة كما قال عز وجل : ﴿ولو ترى إذ المجرمون ناكسو رؤوسهم عند ربهم ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحاً إنا موقنون﴾ فلا يجابون ثم إذا رأوا النار وعاينوها ووقفوا عليها ونظروا إلى ما فيها من العذاب والنكال سألوا الرجعة أشد مما سألوا أول مرة فلا يجابون قال الله تعالى : ﴿ولو ترى إذ وقفوا على النار فقالوا يا ليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين * بل بدا لهم ما كانوا يخفون من قبل ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون﴾ فإذا دخلوا النار وذاقوا مسّها وحسيسها ومقامعها وأغلالها كان سؤالهم للرجعة أشد وأعظم ﴿وهم يصطرخون فيها ربنا أخرجنا نعمل صالحاً غير الذي كنا نعمل ، أو لم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير ؟ فذوقوا فما للظالمين من نصير﴾ ﴿ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون * قال اخسؤوا فيها ولا تكلمون﴾ وفي هذه الآية الكريمة تلطفوا في السؤال وقدموا بين يدي كلامهم مقدمة وهي قولهم ﴿ربنا أمتّنا اثنتين وأحييتنا اثنتين﴾ أي قدرتك عظيمة فإنك أحييتنا بعد ما كنا أمواتاً ثم أمتّنا ثم أحييتنا فأنت قادر على ما تشاء ، وقد اعترفنا بذنوبنا وإننا كنا ظالمين لأنفسنا في الدار الدنيا ﴿فهل الى خروج من سبيل﴾ أي فهل أنت مجيبنا الى أن تعيدنا الى الدار الدنيا فإنك قادر على ذلك لنعمل غير الذي كنا نعمل فإن عدنا الى ماكنا فيه فإنا ظالمون ، فأجيبوا ان لاسبيل الى عودكم ومرجعكم الى الدار الدنيا ، ثم علل المنع من ذلك بأن سجاياكم لاتقبل الحق ولاتقتضيه بل تمجه وتنفيه ، ولهذا قال تعالى : ﴿ذلكم بأنه إذا دعي الله وحده كفرتم وإن يشرك به تؤمنوا﴾ أي أنتم هكذا تكونون وإن رددتم الى الدار الدنيا كما قال عز وجل :﴿ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون﴾ وقوله جل وعلا ﴿فالحكم لله العلي الكبير﴾ أي هو الحاكم في خلقه العادل الذي لايجور فيهدي من يشاء

ويضل من يشاء ويرحم من يشاء ويعذب من يشاء لا إله إلا هو ، وقوله جل جلاله : ﴿هو الذي يريكم آياته﴾ أي يظهر قدرته لخلقه بما يشاهدونه في خلقه العلوي والسفلي من الآيات العظيمة الدالة على كمال خالقها ومبدعها ومنشئها ﴿وينزل لكم من السماء رزقاً﴾ وهو المطر الذي يخرج به من الزروع والثمار ماهو مشاهد بالحس من اختلاف ألوانه وطعومه وروائحه واشكاله وألوانه وهو ماء واحد فبالقدرة العظيمة فاوت بين هذه الأشياء ﴿ومايتذكر﴾ اي يعتبر ويتفكر في هذه الأشياء ويستدل بها على عظمة خالقها ﴿إلا من ينيب﴾ اي من هو بصير منيب الى الله تبارك وتعالى وقوله عز وجل : ﴿فادعوه الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون﴾ أي فأخلصوا لله وحده العبادة والدعاء وخالفوا المشركين في مسلكهم ومذهبهم . قال الإمام أحمد : حدثنا عبد الله بن نمير حدثنا هشام يعني بن عروة بن الزبير عن أبي الزبير محمد بن مسلم بن تدرس المكي قال : كان عبد الله بن الزبير يقول في دبر كل صلاة حين يسلم لا إله إلا الله وحده لاشريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير لاحول ولا قوة إلا بالله ، لا إله إلا الله ولانعبد إلا إياه له النعمة وله الفضل وله الثناء الحسن ، لا إله إلا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون ، قال وكان رسول الله ﷺ يهل بهن دبر كل صلاة . ورواه مسلم وأبو داود والنسائي من طرق عن هشام بن عروة وحجاج بن أبي عثمان وموسى بن عقبة ثلاثتهم عن أبي الزبير عن عبد الله بن الزبير قال : كان رسول الله ﷺ يقول في دبر كل صلاة «لا إله إلا الله وحده لاشريك له» وذكر تمامه . وقد ثبت في الصحيح عن ابن الزبير رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ كان يقول عقب الصلوات المكتوبات «لا إله إلا الله وحده لاشريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير لاحول ولاقوة إلا بالله ، لا إله إلا الله ، ولانعبد إلا إياه ، له النعمة وله الفضل وله الثناء الحسن ، لا إله إلا الله مخصلين له الدين ولو كره الكافرون» . وقال ابن أبي حاتم : حدثنا الربيع حدثنا الخصيب بن ناصع حدثنا صالح يعني المري عن هشام بن حسان عن ابن سيرين عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال «ادعوا الله تبارك وتعالى وأنتم موقنون بالإجابة واعلموا أن الله تعالى لايستجيب دعاء من قلب غافل لاه» .

رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ ﴿١٥﴾ يَوْمَ هُم بَارِزُونَ لَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴿١٦﴾ الْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١٧﴾

يقول تعالى مخبراً عن عظمته وكبريائه وارتفاع عرشه العظيم العالي على جميع مخلوقاته كالسقف لها كما قال تعالى : ﴿ من الله ذي المعارج تعرج الملائكة والروح إليه في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ﴾ وسيأتي إن شاء الله تعالى بيان أن هذه مسافة ما بين العرش الى الأرض السابعة في قول جماعة من السلف والخلف وهو الأرجح إن شاء الله وقد ذكر غير واحد أن العرش من ياقوتة حمراء اتساع ما بين قطريه مسيرة خمسين ألف سنة . وارتفاعه عن الأرض السابعة مسيرة خمسين ألف سنة وقد تقدم في حديث الأوعال ما يدل على ارتفاعه عن السموات السبع بشيء عظيم . وقوله تعالى : ﴿ يلقي الروح من أمره على من يشاء من عباده ﴾ كقوله جلت عظمته : ﴿ ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده أن أنذروا أنه لا إله إلا أنا فاتقون ﴾ وكقوله تعالى : ﴿ وإنه لتنزيل رب العالمين * نزل به الروح الأمين * على قلبك لتكون من المنذرين ﴾ ولهذا قال عز وجل : ﴿ لينذر يوم التلاق ﴾ قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس يوم التلاق اسم من أسماء يوم القيامة حذر الله منه عباده ، وقال ابن جريج قال ابن عباس رضي الله عنهما يلتقي فيه آدم وآخر ولده وقال ابن زيد يلتقي فيه العباد . وقال قتادة والسدي وبلال بن سعد وسفيان بن عيينة يلتقي فيه أهل السماء وأهل الأرض والخالق والخلق ، وقال ميمون بن مهران يلتقي الظالم والمظلوم ، وقد يقال إن يوم التلاق يشمل هذا كله ويشمل أن كل عامل سيلقى ما عمله من خير وشر كما قاله آخرون .

وقوله جل جلاله ﴿ يوم هم بارزون لا يخفى على الله منهم شيء ﴾ أي ظاهرون بادون كلهم لا شيء يكنهم ولا يظلهم ولا يسترهم ولهذا قال ﴿ يوم هم بارزون لا يخفى على الله منهم شيء ﴾ أي الجميع في علمه على السواء . وقوله تبارك وتعالى : ﴿ لمن الملك اليوم ؟ لله الواحد القهار ﴾ قد تقدم في حديث ابن عمر رضي الله عنهما أنه تعالى يطوي السموات والأرض بيده ثم يقول أنا الملك أنا الجبار أنا المتكبر ، أين ملوك الأرض ؟ أين الجبارون ؟ أين المتكبرون ؟ وفي حديث الصور أنه عز وجل إذا قبض أرواح جميع خلقه فلم يبق سواه وحده لا شريك له حينئذ يقول لمن الملك اليوم ؟ ثلاث

مرات ثم يجيب نفسه قائلاً ﴿ لله الواحد القهار ﴾ أي الذي هو وحده قد قهر كل شيء وغلبه . وقد قال ابن أبي حاتم : حدثنا محمد بن غالب الدقاق حدثنا عبيد بن عبيدة حدثنا معتمر عن أبيه حدثنا أبو نضرة عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : ينادي مناد بين يدي الساعة يا أيها الناس أتتكم الساعة فيسمعها الأحياء والأموات قال وينزل الله عز وجل إلى السماء الدنيا ويقول ﴿ لمن الملك اليوم ، لله الواحد القهار ﴾ . وقوله جلت عظمته ﴿ اليوم تجزى كل نفس بما كسبت لا ظلم اليوم إن الله سريع الحساب ﴾ يخبر تعالى عن عدله في حكمه بين خلقه أنه لا يظلم مثقال ذرة من خير ولا من شر بل يجزي بالحسنة عشر أمثالها وبالسيئة واحدة قال تبارك وتعالى ﴿ لا ظلم اليوم ﴾ كما ثبت في صحيح مسلم عن أبي ذر رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ فيما يحكي عن ربه عز وجل أنه قال « يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا - إلى أن قال - يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها عليكم ثم أوفيكم إياها ، فمن وجد خيراً فليحمد الله تبارك وتعالى ، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه » وقوله عز وجل : ﴿ إن الله سريع الحساب ﴾ أي يحاسب الخلائق كلهم كما يحاسب نفساً واحدة كما قال جل وعلا : ﴿ ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة ﴾ وقال جل جلاله ﴿ وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر ﴾ .

وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ ۚ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴿١٨﴾ يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ
وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ ﴿١٩﴾ وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ ۖ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ ۗ إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿٢٠﴾

يوم الأزفة اسم من أسماء يوم القيامة وسميت بذلك لاقترابها كما قال تعالى : ﴿ أزفت الأزفة * ليس لها من دون الله كاشفة ﴾ وقال عز وجل : ﴿ اقتربت الساعة وانشق القمر ﴾ وقال جل وعلا : ﴿اقترب للناس حسابهم ﴾ وقال ﴿ أتى أمر الله فلا تستعجلوه ﴾ وقال جل جلاله ﴿ فلما رأوه زلفة سيئت وجوه الذين كفروا ﴾ الآية . وقوله تبارك وتعالى : ﴿ إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين ﴾ قال قتادة وقفت القلوب في الحناجر من الخوف فلا تخرج ولا تعود إلى أماكنها ، وكذا قال عكرمة والسدي وغير واحد ، ومعنى كاظمين أي ساكتين لا يتكلم أحد إلا بإذنه ﴿يوم يقوم الروح والملائكة صفاً لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صواباً ﴾ وقال ابن جريج ﴿ كاظمين ﴾ أي باكين . وقوله سبحانه وتعالى : ﴿ ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع ﴾ أي ليس للذين ظلموا أنفسهم بالشرك بالله من قريب منهم ينفعهم ولا شفيع يشفع فيهم بل قد تقطعت بهم الأسباب من كل خير . وقوله تعالى : ﴿ يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور ﴾ يخبر عز وجل عن علمه التام المحيط بجميع الأشياء جليلها وحقيرها ، صغيرها وكبيرها ، دقيقها ولطيفها ليحذر الناس علمه فيهم فيستحيوا من الله تعالى حق الحياء ويتقوه حق تقواه ، ويراقبوه مراقبة من يعلم أنه يراه فإنه عز وجل يعلم العين الخائنة وإن أبدت أمانة ويعلم ما تنطوي عليه خبايا الصدور من الضمائر والسرائر . قال ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى : ﴿ يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور ﴾ هو الرجل يدخل على أهل البيت بيتهم وفيهم المرأة الحسناء أو تمر به وبهم المرأة الحسناء فإذا غفلوا لحظ إليها فإذا فطنوا غض بصره عنها فإذا غفلوا لحظ فإذا فطنوا غض ، وقد اطلع الله تعالى من قلبه أنه ود أن لو اطلع على فرجها . رواه ابن أبي حاتم ، وقال الضحاك ﴿ خائنة الأعين ﴾ هو الغمز وقول الرجل رأيت ولم ير . أو لم أر وقد رأى . وقال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما يعلم الله تعالى من العين في نظرها هل تريد الخيانة أم لا ؟ وكذا قال مجاهد وقتادة . وقال ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى : ﴿ وما تخفي الصدور ﴾ يعلم إذا أنت قدرت عليها هل تزني بها أم لا ؟ وقال السدي ﴿ وما تخفي الصدور ﴾ أي من الوسوسة .

وقوله عز وجل ﴿ والله يقضي بالحق ﴾ أي يحكم بالعدل ، قال الأعمش عن سعيد بن جبير عن ابن عباس في قوله تعالى : ﴿ والله يقضي بالحق ﴾ قادر على أن يجزي بالحسنة الحسنة وبالسيئة السيئة ﴿ إن الله هو السميع البصير ﴾ وهذا الذي فسر به ابن عباس رضي الله عنهما هذه الآية كقوله تبارك وتعالى : ﴿ ليجزي الذين أساءوا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى ﴾ وقوله جل وعلا ﴿ والذين يدعون من دونه ﴾ أي من الأصنام والأوثان والأنداد ﴿لا يقضون بشيء ﴾ أي لا يملكون شيئاً ولا يحكمون بشيء ﴿ إن الله هو السميع البصير ﴾ أي سميع لأقوال خلقه بصير بهم فيهدي من يشاء ويضل من يشاء وهو الحاكم العادل في جميع ذلك .

﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٢١﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَتْ تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢٢﴾

يقول تعالى : ﴿ أولم يسيروا ﴾ هؤلاء المكذبون برسالتك يا محمد ﴿ في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم ﴾ أي من الأمم المكذبة بالأنبياء عليهم الصلاة والسلام ما حل بهم من العذاب والنكال مع أنهم كانوا أشد من هؤلاء قوة ﴿ وآثاراً في الأرض ﴾ أي أثروا في الأرض من البنايات والمعالم والديارات ما لا يقدر هؤلاء عليه كما قال عز وجل ﴿ ولقد مكناهم فيما إن مكناكم فيه ﴾ وقال تعالى : ﴿ وأثاروا الأرض وعمروها أكثر مما عمروها ﴾ أي مع هذه القوة العظيمة والبأس الشديد أخذهم الله بذنوبهم وهي كفرهم برسلهم ﴿ وما كان لهم من الله من واق ﴾ أي وما دفع عنهم عذاب الله أحد ولا رده عنهم راد ، ولا وقاهم واق ، ثم ذكر علة أخذه إياهم وذنوبهم التي ارتكبوها واجترموها فقال تعالى : ﴿ ذلك بأنهم كانت تأتيهم رسلهم بالبينات ﴾ أي بالدلائل الواضحات والبراهين القاطعات ﴿ فكفروا ﴾ أي مع هذا البيان والبرهان كفروا وجحدوا ﴿ فأخذهم الله ﴾ تعالى أي أهلكهم ودمر عليهم وللكافرين أمثالها ﴿ إنه قوي شديد العقاب ﴾ أي ذو قوة عظيمة وبطش شديد ﴿ وهو شديد العقاب ﴾ أي عقابه أليم شديد وجيع ، أعاذنا الله تبارك وتعالى منه .

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٢٤﴾ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ ۚ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴿٢٥﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ ۖ إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ ﴿٢٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴿٢٧﴾

يقول تعالى مسلياً لنبيه محمد ﷺ في تكذيب من كذبه من قومه ومبشراً له بأن العاقبة والنصرة له في الدنيا والآخرة كما جرى لموسى بن عمران عليه السلام فإن الله تعالى أرسله بالآيات البينات ، والدلائل الواضحات . ولهذا قال تعالى : ﴿ بآياتنا وسلطان مبين ﴾ والسلطان هو الحجة والبرهان ﴿ إلى فرعون ﴾ وهو ملك القبط بالديار المصرية ﴿ وهامان ﴾ وهو وزيره في مملكته ﴿ وقارون ﴾ وكان أكثر الناس في زمانه مالاً وتجارة ﴿ فقالوا ساحر كذاب ﴾ أي كذبوه وجعلوه ساحراً مجنوناً مموهاً كذاباً في أن الله أرسله وهذه كقوله تعالى : ﴿ كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون * أتواصوا به ؟ بل هم قوم طاغون ﴾ ﴿ فلما جاءهم بالحق من عندنا ﴾ أي بالبرهان القاطع الدال على أن الله عز وجل أرسله إليهم ﴿ قالوا اقتلوا أبناء الذين آمنوا معه واستحيوا نساءهم ﴾ وهذا أمر ثان من فرعون بقتل ذكور بني إسرائيل . أما الأول فكان لأجل الاحتراز من وجود موسى او لإذلال هذا الشعب وتقليل عددهم أو لمجموع الأمرين ، وأما الأمر الثاني فللعلة الثانية ولإهانة هذا الشعب ولكي يتشاءموا بموسى عليه السلام ولهذا قالوا ﴿ أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا * قال عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم في الأرض فينظر كيف تعملون ﴾ قال قتادة هذا أمر بعد أمر ، قال الله عز وجل : ﴿ وما كيد الكافرين إلا في ضلال ﴾ أي وما مكرهم وقصدهم الذي هو تقليل عدد بني إسرائيل لئلا ينصروا عليهم إلا ذاهب وهالك في ضلال ﴿ وقال فرعون ذروني أقتل موسى وليدع ربه ﴾ وهذا عزم من فرعون لعنه الله تعالى على قتل موسى عليه الصلاة والسلام أي قال لقومه دعوني حتى أقتل لكم هذا ﴿ وليدع ربه ﴾ أي لا أبالي منه ، وهذا في غاية الجحد والتهجم والعناد ، وقوله قبحه الله ﴿ إني أخاف أن يبدل دينكم أو أن يظهر في الأرض الفساد ﴾ يعني موسى ، يخشى فرعون أن يضل موسى الناس ويغير رسومهم وعاداتهم ، وهذا كما يقال في المثل : صار فرعون مذكراً ، يعني واعظاً يشفق على الناس من موسى عليه السلام . وقرأ الأكثرون ﴿ أن يبدل دينكم وأن يظهر في الأرض الفساد ﴾ وقرأ الآخرون ﴿ أن يبدل دينكم أو أن يظهر في الأرض الفساد ﴾ وقرأ بعضهم ﴿ يظهر في الأرض الفساد ﴾ بالضم ﴿ وقال

موسى إني عذت بربي وربكم من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب ﴾ أي لما بلغه قول فرعون ﴿ ذروني أقتل موسى ﴾ قال موسى عليه السلام استجرت بالله وعذت به من شره وشر أمثاله ولهذا قال ﴿ إني عذت بربي وربكم ﴾ أيها المخاطبون ﴿ من كل متكبر ﴾ أي عن الحق مجرم «لا يؤمن بيوم الحساب» ولهذا جاء في الحديث عن أبي موسى رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ كان إذا خاف قوماً قال « اللهم إنا نعوذ بك من شرورهم وندرأ بك في نحورهم » .

وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾ يَٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا ۚ قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٢٩﴾

المشهور أن هذا الرجل المؤمن كان قبطياً من آل فرعون ويقال إنه الذي نجا مع موسى عليه الصلاة والسلام ، واختاره ابن جرير ورد قول من ذهب إلى أنه كان إسرائيلياً لأن فرعون انفعل لكلامه واستمعه وكف عن قتل موسى عليه السلام ، ولو كان إسرائيلياً لأوشك أن يعاجل بالعقوبة لأنه منهم وقال ابن جرير عن ابن عباس رضي الله عنهما لم يؤمن من آل فرعون سوى هذا الرجل وامرأة فرعون والذي قال ﴿ يا موسى إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك ﴾ رواه ابن أبي حاتم وقد كان هذا الرجل يكتم إيمانه عن قومه القبط فلم يظهر إلا هذا اليوم حين قال فرعون ﴿ ذروني أقتل موسى ﴾ فأخذت الرجل غضبة لله عز وجل . وأفضل الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر كما ثبت بذلك الحديث ، ولا أعظم من هذه الكلمة عند فرعون وهي قوله ﴿ أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله ﴾ اللهم إلا ما رواه البخاري في صحيحه حيث قال حدثنا علي بن عبد الله حدثنا الوليد بن مسلم حدثنا الأوزاعي حدثني يحيى بن أبي كثير حدثني محمد بن إبراهيم التيمي حدثني عروة بن الزبير رضي الله تعالى عنهما قال قلت لعبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أخبرني بأشد شيء صنعه المشركون برسول الله ﷺ قال بينا رسول الله ﷺ يصلي بفناء الكعبة إذ أقبل عقبة بن أبي معيط فأخذ بمنكب رسول الله ﷺ ولوى ثوبه في عنقه فخنقه خنقاً شديداً فأقبل أبو بكر رضي الله عنه فأخذ بمنكبه ودفعه عن النبي ﷺ ثم قال ﴿ أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم ؟ ﴾ انفرد به البخاري من حديث الاوزاعي قال وتابعه محمد بن إسحاق عن إبراهيم بن عروة عن أبيه به . وقال ابن أبي حاتم حدثنا هارون بن إسحاق الهمداني حدثنا عبده عن هشام يعني ابن عروة عن أبيه عن عمرو بن العاص رضي الله عنه أنه سئل ما أشد ما رأيت قريشاً بلغوا من رسول الله ﷺ ؟ قال مر ﷺ بهم ذات يوم فقالوا له أنت تنهانا أن نعبد ما يعبد آباؤنا ؟ فقال « أنا ذاك » فقاموا إليه فأخذوا بمجامع ثيابه فرأيت أبا بكر رضي الله عنه محتضنه من ورائه وهو يصيح بأعلى صوته وإن عينيه لتسيلان وهو يقول يا قوم ﴿ أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم ﴾ حتى فرغ من الآية كلها وهكذا رواه النسائي من حديث عبدة فجعله من مسند عمرو بن العاص رضي الله عنه ، وقوله تعالى : ﴿ وقد جاءكم بالبينات من ربكم ﴾ أي كيف تقتلون رجلاً لكونه يقول ربي الله وقد أقام لكم البرهان على صدق ما جاءكم به من الحق ؟ ثم تنزل معهم في المخاطبة فقال ﴿ وإن يك كاذباً فعليه كذبه وإن يك صادقاً يصبكم بعض الذي يعدكم ﴾ يعني إذا لم يظهر لكم صحة ما جاءكم به فمن العقل والرأي التام والحزم أن تتركوه ونفسه فلا تؤذوه فإن يك كاذباً فإن الله سبحانه وتعالى سيجازيه على كذبه بالعقوبة في الدنيا والآخرة وإن يك صادقاً وقد آذيتموه يصبكم بعض الذي يعدكم فإنه يتوعدكم إن خالفتموه بعذاب في الدنيا والآخرة فمن الجائز عندكم أن يكون صادقاً فينبغي على هذا أن لا تتعرضوا له بل اتركوه وقومه يدعوهم ويتبعونه . وهكذا أخبر الله عز وجل عن موسى عليه السلام أنه طلب من فرعون وقومه الموادعة في قوله ﴿ ولقد فتنا قبلهم قوم فرعون وجاءهم رسول كريم * أن أدوا إلي عباد الله إني لكم رسول أمين * وان لا تعلوا على الله اني آتيكم بسلطان مبين * وإني عذت بربي وربكم أن ترجمون * وإن لم تؤمنوا لي فاعتزلون ﴾ وهكذا قال رسول الله ﷺ لقريش أن يتركوه يدعو إلى الله تعالى عباد الله ولا يمسوه بسوء ويصلوا ما بينه وبينهم من القرابة في ترك أذيته قال الله عز وجل ﴿ قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى ﴾ أي أن لا تؤذوني فيما بيني وبينكم من القرابة فلا تؤذوني وتتركوا بيني وبين الناس ، وعلى هذا وقعت الهدنة يوم الحديبية وكان فتحاً مبيناً ، وقوله جل وعلا : ﴿ إن الله لا

يهدي من هو مسرف كذاب ﴾ أي لو كان هذا الذي يزعم أن الله تعالى أرسله إليكم كاذباً كما تزعمون لكان أمره بيناً يظهر لكل أحد في أقواله وأفعاله فكانت تكون في غاية الاختلاف والاضطراب وهذا نرى أمره سديداً ومنهجه مستقيماً ، ولو كان من المسرفين الكذابين لما هداه الله وأرشده إلى ما ترون من انتظام أمره وفعله ، ثم قال المؤمن محذراً قومه زوال نعمة الله عنهم وحلول نقمة الله بهم ﴿ يا قوم لكم الملك اليوم ظاهرين في الأرض ﴾ أي قد أنعم الله عليكم بهذا الملك والظهور في الأرض بالكلمة النافذة والجاه العريض فراعوا هذه النعمة بشكر الله تعالى وتصديق رسوله ﷺ واحذروا نقمة الله إن كذبتم رسوله ﴿ فمن ينصرنا من بأس الله إن جاءنا ﴾ أي لا تغني عنكم هذه الجنود وهذه العساكر ولا ترد عنا شيئاً من بأس الله إن أرادنا بسوء قال فرعون لقومه راداً على ما أشار به هذا الرجل الصالح البار الراشد الذي كان أحق بالملك من فرعون ﴿ ما أريكم إلا ما أرى ﴾ أي ما أقول لكم وأشير عليكم إلا ما أراه لنفسي وقد كذب فرعون فإنه كان يتحقق صدق موسى عليه السلام فيما جاء به من الرسالة ﴿ قال لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السموات والأرض بصائر ﴾ وقال الله تعالى : ﴿ وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً ﴾ فقوله ﴿ ما أريكم إلا ما أرى ﴾ كذب فيه وافترى وخان الله تبارك وتعالى ورسوله ﷺ ورعيته فغشهم وما نصحهم وكذا قوله ﴿ وما أهديكم إلا سبيل الرشاد ﴾ أي وما أدعوكم إلا إلى طريق الحق والصدق والرشد وقد كذب أيضاً في ذلك وإن كان قومه قد أطاعوه واتبعوه قال الله تبارك وتعالى : ﴿ فاتبعوا أمر فرعون وما أمر فرعون برشيد ﴾ وقال جلت عظمته ﴿ وأضل فرعون قومه وما هدى ﴾ وفي الحديث « ما من إمام يموت يوم يموت وهو غاش لرعيته إلا لم يرح رائحة الجنة وإن ريحها ليوجد من مسيرة خمسمائة عام » والله سبحانه وتعالى الموفق للصواب .

وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ ۚ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴿٣١﴾ وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۗ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَاءَكُم بِهِ ۖ حَتَّىٰ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ اللَّهُ مِن بَعْدِهِ رَسُولًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴿٣٤﴾ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ ۖ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ وَعِندَ الَّذِينَ آمَنُوا ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٣٥﴾

هذا إخبار من الله عز وجل عن هذا الرجل الصالح مؤمن آل فرعون أنه حذر قومه بأس الله تعالى في الدنيا والآخرة فقال ﴿ يا قوم إني أخاف عليكم مثل يوم الأحزاب ﴾ أي الذين كذبوا رسل الله في قديم الدهر كقوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم من الأمم المكذبة كيف حل بهم بأس الله وما رده عنهم راد ولا صده عنهم صاد ﴿ وما الله يريد ظلماً للعباد ﴾ أي إنما أهلكهم الله تعالى بذنوبهم وتكذيبهم رسله ومخالفتهم أمره فأنفذ فيهم قدره ثم قال ﴿ويا قوم إني أخاف عليكم يوم التناد ﴾ يعني يوم القيامة وسمي بذلك ، قال بعضهم لما جاء في حديث الصور أن الأرض إذا زلزلت وانشقت من قطر إلى قطر وماجت وارتجت فنظر الناس إلى ذلك ذهبوا هاربين ينادي بعضهم بعضاً وقال آخرون منهم الضحاك بل ذلك إذا جيء بجهنم ذهب الناس هراباً منهم فتتلقاهم الملائكة فتردهم إلى مقام المحشر وهو قوله تعالى : ﴿ والملك على أرجائها ﴾ وقوله ﴿ يا معشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض فانفذوا لا تنفذون إلا بسلطان ﴾ وقد روي عن ابن عباس رضي الله عنه والحسن والضحاك أنهم قرأوا يوم التناد بتشديد الدال من ند البعير إذا تردى وذهب وقيل لأن الميزان عنده ملك إذا وزن عمل العبد فرجح نادى بأعلى صوته ألا قد سعد فلان بن فلان سعادة لا يشقى بعدها أبداً ، وإن خف عمله نادى ألا قد شقي فلان بن فلان وقال قتادة ينادي كل قوم بأعمالهم ، ينادي أهل الجنة أهل الجنة وأهل النار أهل النار ، وقيل سمي بذلك لمناداة أهل الجنة أهل النار ﴿ أن قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً فهل وجدتم ما وعد ربكم حقاً ؟ قالوا نعم ﴾ ومناداة أهل النار أهل الجنة ﴿ أن أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله قالوا إن الله حرمهما على الكافرين ﴾ ولمناداة أصحاب الأعراف أهل الجنة وأهل النار كما هو مذكور في سورة الأعراف ، واختار البغوي وغيره أنه سمي بذلك لمجموع ذلك وهو قول حسن جيد ، والله أعلم . وقوله تعالى : ﴿ يوم تولون مدبرين ﴾ أي ذاهبين هاربين ﴿ كلا لا وزر إلى ربك يومئذ المستقر ﴾ ولهذا قال عز وجل ﴿ ما لكم من الله من عاصم ﴾ أي لا مانع يمنعكم من بأس الله وعذابه ﴿ ومن يضلل الله فما له من هاد ﴾ أي من أضله الله فلا هادي له غيره . وقوله تبارك وتعالى :

﴿ ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات ﴾ يعني أهل مصر وقد بعث الله فيهم رسولاً من قبل موسى عليه الصلاة والسلام وهو يوسف عليه الصلاة والسلام كان عزيز أهل مصر وكان رسولاً يدعو إلى الله تعالى أمته بالقسط فما أطاعوه تلك الطاعة إلا بمجرد الوزارة والجاه الدنيوي ولهذا قال تعالى : ﴿ فما زلتم في شك مما جاءكم به حتى إذا هلك قلتم لن يبعث الله من بعده رسولاً ﴾ أي يئستم فقلتم طامعين ﴿ لن يبعث الله من بعده رسولاً ﴾ وذلك لكفرهم وتكذيبهم ﴿ كذلك يضل الله من هو مسرف مرتاب ﴾ أي كحالكم هذا يكون حال من يضله الله لاسرافه في أفعاله وارتياب قلبه ، ثم قال عز وجل : ﴿ الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان أتاهم ﴾ أي الذين يدفعون الحق بالباطل ويجادلون بالحجج بغير دليل وحجة معهم من الله تعالى فإن الله عز وجل يمقت على ذلك أشد المقت ولهذا قال تعالى : ﴿ كبر مقتاً عند الله وعند الذين آمنوا ﴾ أي والمؤمنون أيضاً يبغضون من تكون هذه صفته فإن من كانت هذه صفته يطبع الله على قلبه فلا يعرف بعد ذلك معروفاً ولا ينكر منكراً ولهذا قال تبارك وتعالى : ﴿ كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر ﴾ أي على اتباع الحق ﴿ جبار ﴾ وروى ابن أبي حاتم عن عكرمة وحكي عن الشعبي أنهما قالا لا يكون الإنسان جباراً حتى يقتل نفسين وقال أبو عمران الجوني و قتادة : آية الجبابرة القتل بغير حق ، والله تعالى أعلم .

وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا ۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۚ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ ﴿٣٧﴾

يقول تعالى مخبراً عن فرعون وعتوه وتمرده وافترائه في تكذيبه موسى عليه الصلاة والسلام أنه أمر وزيره هامان أن يبني له صرحاً وهو القصر العالي المنيف الشاهق وكان اتخاذه من الأجر المضروب من الطين المشوي كما قال تعالى : ﴿ فأوقد لي يا هامان على الطين فاجعل لي صرحاً ﴾ ولهذا قال إبراهيم النخعي كانوا يكرهون البناء بالآجر وأن يجعلوه في قبورهم رواه ابن أبي حاتم ، وقوله ﴿ لعلي أبلغ الأسباب أسباب السموات ﴾ إلخ قال سعيد بن جبير وأبو صالح أبواب السموات وقيل طرق السموات ﴿ فأطلع إلى إله موسى وإني لأظنه كاذباً ﴾ وهذا من كفره وتمرده أنه كذب موسى عليه الصلاة والسلام في أن الله عز وجل أرسله إليه قال الله تعالى : ﴿ وكذلك زين لفرعون سوء عمله وصد عن السبيل ﴾ أي بصنعه هذا الذي أراد أن يوهم به الرعية أنه يعمل شيئاً يتوصل به إلى تكذيب موسى عليه الصلاة والسلام ولهذا قال تعالى : ﴿ وما كيد فرعون إلا في تباب ﴾ قال ابن عباس ومجاهد يعني إلا في خسار .

وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ ﴿٣٩﴾ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾

يقول المؤمن لقومه ممن تمرد وطغى وآثر الحياة الدنيا ونسي الجبار الأعلى فقال لهم ﴿ يا قوم اتبعوني أهدكم سبيل الرشاد ﴾ لا كما كذب فرعون في قوله ﴿ وما أهديكم إلا سبيل الرشاد ﴾ ثم زهدهم في الدنيا التي قد آثروها على الأخرى وصدتهم عن التصديق برسول الله موسى عليه الصلاة والسلام فقال ﴿ يا قوم إنما هذه الحياة الدنيا متاع ﴾ أي قليلة زائلة فانية عن قريب تذهب وتضمحل ﴿ وإن الآخرة هي دار القرار ﴾ أي الدار التي لا زوال لها ولا انتقال منها ولا ظعن عنها إلى غيرها بل اما نعيم وإما جحيم ولهذا قال جلت عظمته : ﴿ من عمل سيئة فلا يجزى إلا مثلها ﴾ أي واحدة مثلها ﴿ ومن عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة يرزقون فيها بغير حساب ﴾ أي لا يتقدر بجزاء بل يثيبه الله عز وجل ثواباً كثيراً لا انقضاء له ولا نفاد والله تعالى الموفق للصواب .

وَيَٰقَوْمِ مَا لِىٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِىٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾ تَدْعُونَنِى لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ ﴿٤٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَلَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ

وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٤٣﴾ فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ ۚ وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٤٤﴾ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۚ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾

يقول لهم المؤمن ما بالي أدعوكم إلى النجاة وهي عبادة الله وحده لا شريك له وتصديق رسوله ﷺ الذي بعثه ﴿ وتدعونني إلى النار * تدعونني لأكفر بالله وأشرك به ما ليس لي به علم ﴾ أي على جهل بلا دليل ﴿ وأنا أدعوكم إلى العزيز الغفار ﴾ أي هو في عزته وكبريائه يغفر ذنب من تاب إليه ﴿ لا جرم أنما تدعونني إليه ﴾ يقول حقاً ؟ قال السدي وابن جرير معنى قوله ﴿ لا جرم ﴾ حقا . وقال الضحاك ﴿لا جرم﴾ لا كذب وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ﴿ لا جرم ﴾ يقول بلى إن الذي تدعونني إليه من الأصنام والأنداد ﴿ ليس له دعوة في الدنيا ولا في الآخرة ﴾ قال مجاهد : الوثن ليس له شيء ، وقال قتادة يعني الوثن لا ينفع ولا يضر ، وقال السدي : لا يجيب داعيه لا في الدنيا ولا في الآخرة ، وهذا كقوله تبارك وتعالى : ﴿ ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون ؟ * وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين ﴾ ﴿ إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ولو سمعوا ما استجابوا لكم ﴾ وقوله ﴿ وأن مردنا إلى الله ﴾ أي في الدار الآخرة فيجازى كلا بعمله ولهذا قال ﴿ وأن المسرفين هم أصحاب النار ﴾ أي خالدين فيها بإسرافهم وهو شركهم بالله عز وجل : ﴿ فستذكرون ما أقول لكم ﴾ أي سوف تعلمون صدق ما أمرتكم به ونهيتكم عنه ونصحتكم ووضحت لكم وتتذكرونه وتندمون حيث لا ينفع الندم ﴿ وأفوض أمري إلى الله ﴾ أي وأتوكل على الله وأستعينه وأقاطعكم وأباعدكم ﴿ إن الله بصير بالعباد ﴾ أي هو بصير بهم تعالى وتقدس فيهدي من يستحق الهداية ويضل من يستحق الاضلال وله الحجة البالغة والحكمة التامة والقدر النافذ . وقوله تبارك وتعالى : ﴿ فوقاه الله سيئات ما مكروا ﴾ أي في الدنيا والآخرة ، أما في الدنيا فنجاه الله تعالى مع موسى عليه الصلاة والسلام وأما في الآخرة فبالجنة ﴿ وحاق بآل فرعون سوء العذاب ﴾ وهو الغرق في اليم ثم النقلة منه إلى الجحيم ، فإن أرواحهم تعرض على النار صباحاً ومساء إلى قيام الساعة فإذا كان يوم القيامة اجتمعت أرواحهم وأجسادهم في النار ولهذا قال ﴿ ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب ﴾ أي أشده ألماً وأعظمه نكالاً ، وهذه الآية أصل كبير في استدلال أهل السنة على عذاب البرزخ في القبور وهي قوله تعالى : ﴿ النار يعرضون عليها غدواً وعشياً ﴾ .

ولكن هنا سؤال وهو أنه لا شك أن هذه الآية مكية وقد استدلوا بها على عذاب القبر في البرزخ وقد قال الإمام أحمد حدثنا هشم هو ابن القاسم أبو النضر حدثنا إسحاق بن سعيد هو ابن عمرو بن سعيد بن العاص حدثنا سعيد يعني أباه عن عائشة رضي الله عنها أن يهودية كانت تخدمها فلا تصنع عائشة رضي الله عنها إليها شيئاً من المعروف إلا قالت لها اليهودية وقاك الله عذاب القبر قالت عائشة رضي الله عنها فدخل رسول الله ﷺ علي فقلت يا رسول الله هل للقبر عذاب قبل يوم القيامة ؟ قال ﷺ « لا ، من زعم ذلك ؟ » قالت هذه اليهودية لا أصنع إليها شيئاً من المعروف إلا قالت وقاك الله عذاب القبر قال ﷺ « كذبت يهود وهم على الله أكذب لا عذاب دون يوم القيامة » ثم مكث بعد ذلك ما شاء الله أن يمكث فخرج ذات يوم نصف النهار مشتملاً بثوبه محمرة عيناه وهو ينادي بأعلى صوته « القبر كقطع الليل المظلم ، أيها الناس لو تعلمون ما أعلم بكيتم كثيراً وضحكتم قليلا ، أيها الناس استعيذوا بالله من عذاب القبر فإن عذاب القبر حق » وهذا اسناد صحيح على شرط البخاري ومسلم ولم يخرجاه وروى أحمد حدثنا سفيان عن الزهري عن عروة عن عائشة رضي الله عنها قالت سألتها امرأة يهودية فأعطتها فقالت لها وقاك الله من عذاب القبر فأنكرت عائشة رضي الله عنها ذلك فلما رأت النبي ﷺ قالت له فقال ﷺ « لا » قالت عائشة رضي الله عنها ثم قال لنا رسول الله ﷺ بعد ذلك « وانه أوحي إلي أنكم تفتنون في قبوركم » وهذا أيضاً على شرطهما . فيقال فما الجمع بين هذا وبين كون الآية مكية وفيها الدلالة على عذاب البرزخ ؟ والجواب أن الآية دلت على عرض الأرواح على النار غدواً وعشياً في البزرخ وليس فيها دلالة على اتصال تألمها بأجسادها في القبور إذ قد يكون ذلك مختصاً بالروح فأما حصول ذلك للجسد في البرزخ وتألمه بسببه فلم يدل عليه إلا السنة في الأحاديث المرضية الآتي ذكرها . وقد يقال أن هذه الآية إنما دلت على عذاب الكفار في البرزخ ولا يلزم من ذلك أن يعذب المؤمن في قبره بذنب . ومما يدل على ذلك ما رواه الإمام أحمد حدثنا عثمان بن عمر حدثنا يونس عن الزهري عن عروة عن عائشة رضي الله

عنها أن رسول الله ﷺ دخل عليها وعندها امرأة من اليهود وهي تقول أشعرت أنكم تفتنون في قبوركم ، فارتاع رسول الله ﷺ وقال « إنما يفتن يهود » قالت عائشة رضي الله عنها فلبثنا ليالي ثم قال رسول الله ﷺ « ألا أنكم تفتنون في القبور » وقالت عائشة رضي الله عنها فكان رسول الله ﷺ بعد يستعيذ من عذاب القبر ، وهكذا رواه مسلم عن هارون بن سعيد وحرملة كلاهما عن ابن وهب عن يونس بن يزيد الإيلي عن الزهري به .

وقد يقال أن هذه الآية دلت على عذاب الأرواح في البرزخ ولا يلزم من ذلك أن يتصل في الأجساد في قبورها فلما أوحي إلى النبي ﷺ في ذلك بخصوصه استعاذ منه والله سبحانه وتعالى أعلم . وقد روى البخاري من حديث شعبة عن أشعث عن ابن أبي الشعثاء عن أبيه عن مسروق عن عائشة رضي الله عنها أن يهودية دخلت عليها فقالت نعوذ بالله من عذاب القبر فسألت عائشة رضي الله عنها رسول الله ﷺ عن عذاب القبر فقال ﷺ « نعم عذاب القبر حق » قالت عائشة رضي الله عنها : فما رأيت رسول الله ﷺ بعد صلى صلاة الا تعوذ من عذاب القبر . فهذا يدل على أنه بادر ﷺ إلى تصديق اليهودية في هذا الخبر وقرر عليه ، وفي الأخبار المتقدمة أنه أنكر ذلك حتى جاءه الوحي فلعلهما قضيتان والله سبحانه أعلم وأحاديث عذاب القبر كثيرة جداً وقال قتادة في قوله تعالى : ﴿ غدواً وعشياً ﴾ صباحا ومساء ما بقيت الدنيا يقال لهم يا آل فرعون هذه منازلكم توبيخاً ونقمة وصغارا لهم ، وقال ابن زيد هم فيها اليوم يغدى بهم ويراح إلى أن تقوم الساعة . وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبو سعيد حدثنا المحاربي حدثنا ليث عن عبد الرحمن بن ثروان عن هذيل عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : إن أرواح الشهداء في أجواف طيور خضر تسرح بهم في الجنة حيث شاءوا ، وان أرواح ولدان المؤمنين في أجواف عصافير تسرح في الجنة حيث شاءت فتأوي إلى قناديل معلقة في العرش ، وإن أرواح آل فرعون في أجواف طيور سود تغدو على جهنم وتروح عليها فذلك عرضها ، وقد رواه الثوري عن أبي قيس عن أبي الهذيل بن شرحبيل من كلامه في أرواح آل فرعون وكذلك قال السدي . وفي حديث الاسراء عن رواية أبي هارون العبدي عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال فيه « ثم انطلق بي إلى خلق كثير من خلق الله رجال كل رجل منهم بطنه مثل البيت الضخم مصفدون على سابلة آل فرعون وآل فرعون يعرضون على النار غدواً وعشياً ﴿ ويوم تقوم الساعة ادخلوا آل فرعون أشد العذاب ﴾ وآل فرعون كالابل المسومة يخبطون الحجارة والشجر ولا يعقلون وقال ابن ابي حاتم حدثنا علي بن الحسين حدثنا زيد بن أخرم حدثنا عامر بن مدرك الحارثي حدثنا عتبة ـ يعني ابن يقظان ـ عن قيس بن مسلم عن طارق عن شهاب عن ابن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « ما أحسن محسن من مسلم أو كافر إلا أثابه الله تعالى » قال قلنا يا رسول الله ما إثابة الله الكافر ؟ فقال « إن كان قد وصل رحماً أو تصدق بصدقة أو عمل حسنة أثابه الله تبارك وتعالى المال والولد والصحة وأشباه ذلك » قلنا فما إثابته في الآخرة ؟ قال ﷺ « عذابا دون العذاب » وقرأ ﴿ أدخلوا آل فرعون أشد العذاب ﴾ ورواه البزار في مسنده عن زيد بن أخرم ثم قال : لا نعلم له اسناداً غير هذا . وقال ابن جرير حدثنا عبد الكريم بن أبي عمير حدثنا حماد بن محمد الفزاري البلخي قال سمعت الأوزاعي وسأله رجل فقال رحمك الله رأينا طيوراً تخرج من البحر تأخذ ناحية الغرب بيضاً فوجاً فوجاً لا يعلم عددها إلا الله عز وجل فإذا كان العشي رجع مثلها سودا قال وفطنتم إلى ذلك ؟ قال نعم ، قال إن ذلك الطير في حواصلها أرواح آل فرعون يعرضون على النار غدوا وعشياً فترجع الى وكورها وقد احترقت أرياشها وصارت سوداً فينبت عليها من الليل ريش أبيض ويتناثر الأسود ثم تغدو على النار غدواً وعشياً ثم ترجع إلى وكورها ، فذلك دأبهم في الدنيا فاذا كان يوم القيامة قال الله تعالى : ﴿ أدخلوا آل فرعون أشد العذاب ﴾ قال وكانوا يقولون انهم ستمائة ألف مقاتل ، وقال الامام أحمد حدثنا إسحاق حدثنا مالك عن نافع عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ « إن أحدكم إذا مات عرض عليه مقعده بالغداة والعشي إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة ، وإن كان من أهل النار فمن أهل النار فيقال هذا مقعدك حتى يبعثك الله عز وجل إليه يوم القيامة » اخرجاه في الصحيحين من حديث مالك به .

﴿ وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِي ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ
عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴿٤٧﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ ﴿٤٨﴾ وَقَالَ
ٱلَّذِينَ فِي ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٩﴾ قَالُوٓا۟ أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ
رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۚ قَالُوا۟ فَٱدْعُوا۟ ۗ وَمَا دُعَٰٓؤُا۟ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ ﴿٥٠﴾

يخبر تعالى عن تحاج أهل النار في النار وتخاصمهم وفرعون وقومه من جملتهم فيقول الضعفاء وهم الاتباع الذين استكبروا وهم القادة والسادة والكبراء ﴿ انا كنا لكم تبعاً ﴾ اي اطعناكم فيما دعوتمونا اليه في الدنيا من الكفر والضلال ﴿ فهل انتم مغنون عنا نصيباً من النار ﴾ اي قسطاً تتحملونه عنا ﴿ قال الذين استكبروا انا كل فيها ﴾ اي لا نتحمل عنكم شيئاً كفى بنا ما عندنا وما حملنا من العذاب والنكال ﴿ ان الله قد حكم بين العباد ﴾ اي فقسم بيننا العذاب بقدر ما يستحقه كل منا كما قال تعالى : ﴿ قال لكل ضعف ولكن لا تعلمون * وقال الذين في النار لخزنة جهنم ادعوا ربكم يخفف عنا يوماً من العذاب ﴾ لما علموا ان الله عز وجل لا يستجيب منهم ولا يستمع لدعائهم بل قد قال ﴿ اخسئوا فيها ولا تكلمون ﴾ سألوا الخزنة وهم كالسجانين لأهل النار ان يدعوا لهم الله تعالى أن يخفف عن الكافرين ولو يوماً واحداً من العذاب فقالت لهم الخزنة رادين عليهم ﴿ أولم تك تأتيكم رسلكم بالبينات ؟﴾ اي أو ما قامت عليكم الحجج في الدنيا على ألسنة الرسل ﴿ قالوا بلى قالوا فادعوا ﴾ اي انتم لأنفسكم فنحن لا ندعو لكم ولا نسمع منكم ولا نود خلاصكم ونحن منكم براء ثم نخبركم انه سواء دعوتم او لم تدعوا لا يستجاب لكم ولا يخفف عنكم ولهذا قالوا ﴿ وما دعاء الكافرين الا في ضلال ﴾ اي الا في ذهاب ولا يقبل ولا يستجاب .

إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ﴿٥١﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴿٥٢﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ ﴿٥٣﴾ هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿٥٤﴾ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ ﴿٥٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿٥٦﴾

قد أورد أبو جعفر بن جرير رحمه الله تعالى عند قوله تعالى : ﴿إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا﴾ سؤالا فقال قد علم أن بعض الأنبياء عليهم الصلاة والسلام قتله قومه بالكلية كيحيى وزكريا وشعيا ومنهم من خرج من بين أظهرهم إما مهاجراً كابراهيم ، وإما إلى السماء كعيسى فأين النصرة في الدنيا ثم أجاب عن ذلك بجوابين [أحدهما] أن يكون الخبر خرج عاماً والمراد به البعض قال وهذا سائغ في اللغة [الثاني] أن يكون المراد بالنصر الانتصار لهم ممن آذاهم وسواء كان ذلك بحضرتهم أو في غيبتهم أو بعد موتهم كما فعل يحيى وزكريا وشعيا سلط عليهم من أعدائهم من اهانهم وسفك دماءهم وقد ذكر أن النمرود أخذه الله تعالى أخذ عزيز مقتدر ، وأما الذين راموا صلب المسيح عليه السلام من اليهود فسلط الله تعالى عليهم الروم فأهانوهم وأذلوهم وأظهرهم الله تعالى عليهم ثم قبل يوم القيامة سينزل عيسى بن مريم عليه الصلاة والسلام إماماً عادلاً وحكماً مقسطاً فيقتل المسيح الدجال وجنوده من اليهود ويقتل الخنزير ويكسر الصليب ، ويضع الجزية فلا يقبل إلا الإسلام وهذه نصرة عظيمة وهذه سنة الله تعالى في خلقه في قديم الدهر وحديثه أنه ينصر عباده المؤمنين في الدنيا ويقر أعينهم ممن آذاهم ففي صحيح البخاري عن ابي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال : « يقول الله تبارك وتعالى من عادى لي ولياً فقد بارزني بالحرب » وفي الحديث الآخر « إني لأثأر لأوليائي كما يثأر الليث بالحرب » ولهذا أهلك الله عز وجل قوم نوح وعاد وثمود وأصحاب الرس وقوم لوط واهل مدين وأشباههم وأضرابهم ممن كذب الرسل وخالف الحق . وأنجى الله تعالى من بينهم المؤمنين فلم يهلك منهم أحداً وعذب الكافرين فلم يفلت منهم احداً ، قال السدي لم يبعث الله عز وجل رسولاً قط إلى قوم فيقتلونه أو قوماً من المؤمنين يدعون إلى الحق فيقتلون فيذهب ذلك القرن حتى يبعث الله تبارك وتعالى لهم من ينصرهم فيطلب بدمائهم ممن فعل ذلك بهم في الدنيا قال فكانت الانبياء والمؤمنون يقتلون في الدنيا وهم منصورون فيها . وهكذا نصر الله نبيه محمداً ﷺ وأصحابه على من خالفه وناواه وكذبه وعاداه فجعل كلمته هي العليا ودينه هو الظاهر على سائر الأديان ، وأمره بالهجرة من بين ظهراني قومه إلى المدينة النبوية وجعل له فيها أنصاراً وأعواناً ، ثم منحه أكتاف المشركين يوم بدر فنصره عليهم وخذلهم وقتل صناديدهم ، واسر سراتهم فاستاقهم مقرنين في الاصفاد ، ثم منَّ عليهم بأخذه الفداء منهم ثم بعد مدة قريبة فتح عليه مكة فقرت عينه ببلده وهو البلد

المحرم الحرام المشرف المعظم فأنقذه الله تعالى به مما كان فيه من الكفر والشرك وفتح له اليمن ودانت له جزيرة العرب بكاملها ودخل الناس في دين الله أفواجاً ، ثم قبضه الله تعالى اليه لما له عنده من الكرامة العظيمة فأقام الله تبارك وتعالى أصحابه خلفاء بعده فبلغوا عنه دين الله عز وجل ودعوا عباد الله تعالى إلى الله جل وعلا ، وفتحوا البلاد والرساتيق والأقاليم والمدائن والقرى والقلوب حتى انتشرت الدعوة المحمدية في مشارق الارض ومغاربها . ثم لا يزال هذا الدين قائما منصوراً ظاهراً إلى قيام الساعة ولهذا قال تعالى : ﴿انا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الاشهاد﴾ أي يوم القيامة تكون النصرة أعظم وأكبر وأجل ، قال مجاهد : الأشهاد الملائكة . وقوله تعالى : ﴿يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم﴾ بدل من قوله ﴿ويوم يقوم الأشهاد﴾ وقرأ آخرون يوم بالرفع كأنه فسره به ﴿ويوم يقوم الاشهاد يوم لا ينفع الظالمين﴾ وهم المشركون ﴿معذرتهم﴾ أي لا يقبل منهم عذر ولا فدية ﴿ولهم اللعنة﴾ اي الابعاد والطرد من الرحمة ﴿ولهم سوء الدار﴾ وهي النار قاله السدي بئس المنزل والمقيل ، وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما ﴿ولهم سوء الدار﴾ اي سوء العاقبة وقوله تعالى : ﴿ولقد آتينا موسى الهدى﴾ وهو ما بعثه الله عز وجل به من نور الهدى والنور ﴿وأورثنا بني اسرائيل الكتاب﴾ اي جعلنا لهم العاقبة وأورثناهم بلاد فرعون وأمواله وحواصله وأرضه بما صبروا على طاعة الله تبارك وتعالى واتباع رسوله موسى عليه الصلاة والسلام وفي الكتاب الذي أورثوه وهو التوراة ﴿هدى وذكرى لأولي الالباب﴾ وهي العقول الصحيحة السليمة . وقوله عز وجل ﴿فاصبر﴾ أي يا محمد ﴿إن وعد الله حق﴾ أي وعدناك أنا سنعلي كلمتك ونجعل العاقبة لك ولمن اتبعك والله لا يخلف الميعاد وهذا الذي أخبرناك به حق لا مرية فيه ولا شك وقوله تبارك وتعالى : ﴿واستغفر لذنبك﴾ هذا تهييج للأمة على الاستغفار ﴿وسبح بحمد ربك بالعشي﴾ اي في اواخر النهار وأوائل الليل ﴿والإبكار﴾ وهي اوائل النهار وأواخر الليل . وقوله تعالى : ﴿إن الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان أتاهم﴾ اي يدفعون الحق بالباطل ويردون الحجج الصحيحة بالشبه الفاسدة بلا برهان ولا حجة من الله ﴿إن في صدورهم إلا كبر ما هم ببالغيه﴾ أي ما في صدروهم إلا كبر على اتباع الحق واحتقار لمن جاءهم به وليس ما يرومونه من إخماد الحق وإعلاء الباطل بحاصل لهم بل الحق هو المرفوع وقولهم وقصدهم هو الموضوع ﴿فاستعذ بالله﴾ أي من حال مثل هؤلاء ﴿إنه هو السميع البصير﴾ أو من شر مثل هؤلاء المجادلين في آيات الله بغير سلطان هذا تفسير ابن جرير .

وقال كعب وابو العالية نزلت هذه الآية في اليهود ﴿ان الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان أتاهم إن في صدورهم إلا كبر ما هم ببالغيه﴾ قال ابو العالية وذلك أنهم ادعوا ان الدجال منهم وأنهم يملكون به الأرض فقال الله تعالى لنبيه ﷺ آمراً له أن يستعيذ من فتنة الدجال ولهذا قال عز وجل ﴿فاستعذ بالله إنه هو السميع البصير﴾ وهذا قول غريب وفيه تعسف بعيد وان كان قد رواه ابن ابي حاتم في كتابه ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

لَخَلْقُ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِيءُ ۚ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ إِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٩﴾

يقول تعالى منبهاً على أنه يعيد الخلائق يوم القيامة وان ذلك سهل عليه يسير لديه بأنه خلق السموات والارض وخلقهما اكبر من خلق الناس بدأة وإعادة فمن قدر على ذلك فهو قادر على ما دونه بطريق الأولى والاحرى كما قال تعالى : ﴿أو لم يروا أن الله الذي خلق السموات والأرض ولم يعي بخلقهن بقادر على ان يحيي الموتى بلى انه على كل شيء قدير﴾ وقال ههنا ﴿لخلق السموات والارض أكبر من خلق الناس ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾ فلهذا لا يتدبرون هذه الحجة ولا يتأملونها كما كان كثير من العرب يعترفون بأن الله تعالى خلق السموات والارض وينكرون المعاد استبعاداً وكفراً وعناداً وقد اعترفوا بما هو أولى مما أنكروا ثم قال تعالى : ﴿وما يستوي الاعمى والبصير والذين آمنوا وعملوا الصالحات ولا المسيء قليلاً ما تتذكرون﴾ اي كما لا يستوي الاعمى الذي لا يبصر شيئاً والبصير الذي يرى ما انتهى اليه بصره ، بل بينهما فرق عظيم كذلك لا يستوي المؤمنون الابرار والكفرة الفجار ﴿قليلاً ما تتذكرون﴾ اي ما أقل ما يتذكر كثير من الناس ثم قال تعالى : ﴿ان الساعة لآتية﴾ اي لكائنة وواقعة ﴿لا ريب فيها ولكن اكثر الناس لا يؤمنون﴾ اي لا يصدقون بها بل يكذبون بوجودها . قال ابن ابي حاتم حدثنا محمد بن عبد الله بن عبد الحكم حدثنا أشهب حدثنا مالك عن شيخ قديم من اهل اليمن قدم من ثم قال سمعت أن الساعة اذا دنت اشتد البلاء على الناس واشتد حر الشمس ، والله أعلم .

وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾

هذا من فضله تبارك وتعالى وكرمه أنه ندب عباده إلى دعائه وتكفل لهم بالإجابة كما كان سفيان الثوري يقول يا من أحب عباده اليه من سأله فأكثر سؤاله ، ويا من أبغض عباده اليه من لم يسأله وليس احد كذلك غيرك يا رب . رواه ابن ابي حاتم وفي هذا المعنى يقول الشاعر :

الله يغضب ان تركت سؤاله وبني آدم حين يسأل يغضب

وقال قتادة : قال كعب الاحبار أعطيت هذه الامة ثلاثاً لم تعطهن امة قبلها ولا نبي : كان إذا أرسل الله نبياً قال له أنت شاهد على أمتك وجعلكم شهداء على الناس ، وكان يقال له ليس عليك في الدين من حرج وقال لهذه الامة ﴿وما جعل عليكم في الدين من حرج﴾ وكان يقال له ادعني أستجب لك وقال لهذه الامة ﴿ادعوني أستجب لكم﴾ رواه ابن ابي حاتم . وقال الإمام الحافظ أبو يعلى أحمد بن علي بن المثنى الموصلي في مسنده حدثنا ابو ابراهيم الترجماني حدثنا صالح المدني قال سمعت الحسن يحدث عن أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي ﷺ فيما يروي عن ربه عز وجل قال «أربع خصال واحدة منهن لي وواحدة لك وواحدة فيما بيني وبينك وواحدة فيما بينك وبين عبادي ، فأما التي لي فتعبدني لا تشرك بي شيئاً وأما التي لك علي فما عملت من خير جزيتك به وأماالتي بيني وبينك فمنك الدعاء وعلي الاجابة وأما التي بينك وبين عبادي فارض لهم ما ترضى لنفسك» . وقال الإمام أحمد : حدثنا أبو معاوية حدثنا الأعمش عن ذر عن يسيع الكندي عن النعمان بن بشير رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ «إن الدعاء هو العبادة» ثم قرأ ﴿ادعوني أستجب لكم إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين﴾ وهكذا رواه أصحاب السنن الترمذي والنسائي وابن ماجة وابن أبي حاتم وابن جرير كلهم من حديث الأعمش به . وقال الترمذي حسن صحيح ورواه أبو داود والترمذي والنسائي وابن جرير ايضا من حديث شعبة عن المنصور والأعمش كلاهما عن ذر به ، وكذا رواه ابن يونس عن أسيد بن عاصم بن مهران حدثنا النعمان بن عبد السلام حدثنا سفيان الثوري عن منصور عن ذر به ، ورواه ابن حبان والحاكم في صحيحهما وقال الحاكم صحيح الإسناد . وقال الإمام أحمد : حدثنا وكيع حدثني أبو صالح المدني شيخ من أهل المدينة سمعه عن أبي صالح وقال مرة سمعت أبا صالح يحدث عن أبي صالح وقال مرة سمعت أبا صالح يحدث عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ «من لم يدع الله عز وجل غضب عليه» تفرد به أحمد وهذا إسناد لا بأس به ، وقال الإمام أحمد أيضاً : حدثنا مروان الفزاري حدثنا صبيح أبو المليح سمعت أبا صالح يحدث عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ «من لا يسأله يغضب عليه» قال ابن معين أبو المليح هذا اسمه صبيح كذا قيده بالضم عبد الغني بن سعيد وأما أبو صالح هذا فهو الخوزي سكن شعب الخوز ، قاله البزار في مسنده ، وكذا وقع في روايته أبو المليح الفارسي عن أبي صالح الخوزي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ «من لم يسأل الله يغضب عليه» . وقال الحافظ أبو محمد الحسن بن عبد الرحمن الرامهرمزي : حدثنا همام حدثنا ابراهيم بن الحسن حدثنا نائل بن نجيح حدثني عائذ بن حبيب عن محمد بن سعيد قال لما مات محمد بن مسلمة الأنصاري وجدنا في ذؤابه سيفه كتاباً باسم الله الرحمن الرحيم سمعت رسول الله ﷺ يقول «إن لربكم في بقية ايام دهركم نفحات فتعرضوا له لعل دعوة ان توافق رحمة فيسعد بها صاحبها سعادة لا يخسر بعدها أبداً» . وقوله عز وجل ﴿ان الذين يستكبرون عن عبادتي﴾ اي عن دعائي وتوحيدي سيدخلون جهنم داخرين اي صاغرين حقيرين كما قال الإمام أحمد : حدثنا يحيى بن سعيد عن ابن عجلان حدثني عمرو بن شعيب عن ابيه عن جده عن النبي ﷺ قال «يحشر المتكبرون يوم القيامة امثال الذر في صور الناس يعلوهم كل شيء من الصغار حتى يدخلوا سجناً في جهنم يقال له بولس تعلوهم نار الانيار يسقون من طينة الخبال عصارة أهل النار» . وقال ابن ابي حاتم : حدثنا علي بن الحسين حدثنا ابو بكر بن محمد بن يزيد بن خنيس قال سمعت ابي يحدث عن وهيب بن الورد حدثني رجل قال : كنت أسير ذات يوم في أرض الروم فسمعت هاتفاً من فوق رأس الجبل وهو يقول : يا رب عجبت لمن عرفك كيف يرجو أحداً غيرك يا رب عجبت لمن عرفك كيف يطلب حوائجه إلى احد غيرك . قال ثم ذهبت ثم جاءت الطامة الكبرى قال ثم عاد الثانية فقال يا رب عجبت لمن عرفك كيف يتعرض لشيء من سخطك يرضي غيرك قال وهيب وهذه الطامة الكبرى ، قال فناديته أجني أنت أم انسي؟ قال بل انسي اشغل نفسك بما يعنيك عما لا يعنيك .

ٱللَّهُ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ

النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦١﴾ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٦٢﴾ كَذَٰلِكَ
يُؤْفَكُ الَّذِينَ كَانُوا بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٦٣﴾ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً
وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ ۚ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ
الْعَالَمِينَ ﴿٦٤﴾ هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ۗ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٥﴾

يقول تعالى ممتناً على خلقه بما جعل لهم من الليل الذي يسكنون فيه يستريحون من حركات ترددهم في المعايش بالنهار وجعل النهار مبصراً اي مضيئاً ليتصرفوا فيه بالأسفار وقطع الأقطار والتمكن من الصناعات ﴿إن الله لذو فضل على الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون﴾ أي لا يقومون بشكر نعم الله عليهم ، ثم قال عز وجل ﴿ذلكم الله ربكم خالق كل شيء لا إله إلا هو﴾ اي الذي فعل هذه الأشياء هو الله الواحد الأحد خالق الاشياء الذي لا إله غيره ولا رب سواه ﴿فأنى تؤفكون﴾ اي فكيف تعبدون غيره من الأصنام التي لا تخلق شيئاً بل هي مخلوقة منحوتة .

وقوله عز وجل ﴿كذلك يؤفك الذين كانوا بآيات الله يجحدون﴾ اي كما ضل هؤلاء بعبادة غير الله كذلك أفك الذين من قبلهم فعبدوا غيره بلا دليل ولا برهان بل بمجرد الجهل والهوى . وجحدوا حجج الله وآياته وقوله تعالى : ﴿الله الذي جعل لكم الارض قراراً﴾ اي جعلها لكم مستقراً بساطاً مهاداً تعيشون عليها وتتصرفون فيها وتمشون في مناكبها وأرساها بالجبال لئلا تميد بكم ﴿والسماء بناء﴾ أي سقفاً للعالم محفوظاً ﴿وصوركم فأحسن صوركم﴾ اي فخلقكم في احسن الاشكال ومنحكم أكمل الصور في أحسن تقويم ﴿ورزقكم من الطيبات﴾ اي من المآكل والمشارب في الدنيا فذكر أنه خالق الدار والسكان والارزاق فهو الخالق الرازق كما قال تعالى في سورة البقرة ﴿يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون * الذي جعل لكم الارض فراشاً والسماء بناء وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون﴾ . وقال تعالى ههنا بعد خلق هذه الأشياء ﴿ذلكم الله ربكم فتبارك الله رب العالمين﴾ اي فتعالى وتقدس وتنزه رب العالمين كلهم ثم قال تعالى : ﴿هو الحي لا إله إلا هو﴾ اي هو الحي أزلاً وابداً لم يزل ولا يزال وهو الاول والآخر والظاهر والباطن ﴿لا إله الا هو﴾ اي لا نظير له ولا عديل له ﴿فاعبدوه مخلصين له الدين﴾ اي موحدين له مقرين بأنه لا اله الا هو الحمد لله رب العالمين . قال ابن جرير : كان جماعة من أهل العلم يأمرون من قال لا اله الا الله أن يتبعها بالحمدلله رب العالمين عملاً بهذه الآية . ثم روي عن محمد بن علي بن الحسين بن شقيق عن أبيه عن الحسين بن واقد عن الأعمش عن مجاهد عن ابن عباس قال : من قال لا إله إلا الله فليقل على اثرها الحمدلله رب العالمين وذلك قوله تعالى : ﴿فادعوه مخلصين له الدين الحمدلله رب العالمين﴾ وقال أبو أسامة وغيره عن اسماعيل بن ابي خالد عن سعيد بن جبير قال اذا قرأت ﴿فادعوا الله مخلصين له الدين﴾ فقل لا اله الا الله وقل على أثرها الحمد لله رب العالمين ثم قرأ هذه الآية ﴿فادعوه مخلصين له الدين الحمد لله رب العالمين﴾ . قال الإمام أحمد : حدثنا ابن نمير حدثنا هشام يعني ابن عروة بن الزبير عن ابي الزبير محمد بن مسلم بن تدرس المكي قال كان عبد الله بن الزبير يقول في دبر كل صلاة حين يسلم لا إله الا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير لا حول ولا قوة إلا بالله ، لا إله إلا الله ولا نعبد الا إياه له النعمة وله الفضل وله الثناء الحسن ، لا إله الا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون قال وكان رسول الله ﷺ يهل بهن دبر كل صلاة ورواه مسلم وابو داود والنسائي من طرق عن هشام بن عروة وحجاج بن ابي عثمان وموسى بن عقبة ثلاثتهم عن ابي الزبير عن عبد الله بن الزبير قال : كان رسول الله ﷺ يقول في دبر كل صلاة «لا إله إلا الله وحده لا شريك له» وذكر تمامه .

﴿ قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِيَ الْبَيِّنَاتُ مِن رَّبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ
الْعَالَمِينَ ﴿٦٦﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا
أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا ۚ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ ۖ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ
تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ ۖ فَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٦٨﴾

يقول تبارك وتعالى قل يا محمد لهؤلاء المشركين إن الله عز وجل ينهى أن يعبد أحد سواه من الأصنام والأنداد والأوثان وقد بين تبارك وتعالى أنه لا يستحق العبادة أحد سواه في قوله جلت عظمته ﴿هو الذي خلقكم من تراب ثم نطفة ثم من علقة ثم يخرجكم طفلاً ثم لتبلغوا أشدكم ثم لتكونوا شيوخاً﴾ اي هو الذي يقلبكم في هذه الأطوار كلها وحده لا شريك له وعن أمره وتدبيره وتقديره يكون ذلك كله ﴿ومنكم من يتوفى من قبل﴾ اي من قبل ان يوجد ويخرج إلى هذا العالم بل تسقطه امه سقطاً ومنهم من يتوفى صغيراً وشاباً وكهلاً قبل الشيخوخة كقوله تعالى : ﴿لنبين لكم ونقر في الارحام ما نشاء الى اجل مسمى﴾ وقال عز وجل ههنا ﴿ولتبلغوا أجلاً مسمى ولعلكم تعقلون﴾ قال ابن جريج تتذكرون البعث ثم قال تعالى : ﴿هو الذي يحيي ويميت﴾ اي هو المتفرد بذلك لا يقدر على ذلك احد سواه ﴿فاذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون﴾ اي لا يخالف ولا يمانع بل ما شاء كان لا محالة .

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ ﴿٦٩﴾ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٧٠﴾ إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿٧٢﴾ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٧٣﴾ مِنْ دُونِ اللَّهِ ۖ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُو مِنْ قَبْلُ شَيْئًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ ﴿٧٤﴾ ذَٰلِكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ ﴿٧٥﴾ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٦﴾

يقول تعالى ألا تعجب يا محمد من هؤلاء المكذبين بآيات الله ويجادلون في الحق بالباطل كيف تصرف عقولهم عن الهدى إلى الضلال ﴿الذين كذبوا بالكتاب وبما أرسلنا به رسلنا﴾ أي من الهدى والبيان ﴿فسوف يعلمون﴾ هذا تهديد شديد ، ووعيد أكيد ، من الرب جل جلاله لهؤلاء كما قال تعالى : ﴿ويل يومئذ للمكذبين﴾ وقوله عز وجل ﴿إذ الأغلال في أعناقهم والسلاسل﴾ أي متصلة بالاغلال بأيدي الزبانية يسحبونهم على وجوههم تارة إلى الحميم وتارة إلى الجحيم ولهذا قال تعالى : ﴿يسحبون في الحميم ثم في النار يسجرون﴾ كما قال تبارك وتعالى : ﴿هذه جهنم التي يكذب بها المجرمون ، يطوفون بينها وبين حميم آن﴾ وقال تعالى بعد ذكر أكلهم الزقوم وشربهم الحميم ﴿ثم إن مرجعهم لإلى الجحيم﴾ وقال عز وجل ﴿وأصحاب الشمال ما أصحاب الشمال * في سموم وحميم * وظل من يحموم * لا بارد ولا كريم - إلى أن قال - ثم إنكم أيها الضالون المكذبون * لآكلون من شجر من زقوم * فمالئون منها البطون * فشاربون عليه من الحميم * فشاربون شرب الهيم * هذا نزلهم يوم الدين﴾ وقال عز وجل ﴿إن شجرة الزقوم طعام الأثيم ، كالمهل يغلي في البطون كغلي الحميم ، خذوه فاعتلوه إلى سواء الجحيم ، ثم صبوا فوق رأسه من عذاب الحميم ، ذق انك أنت العزيز الكريم ، ان هذا ما كنتم به تمترون﴾ أي يقال لهم ذلك على وجه التقريع والتوبيخ والتحقير والتصغير والتهكم والاستهزاء بهم ، قال ابن ابي حاتم : حدثنا علي بن الحسين حدثنا أحمد بن منيع حدثنا منصور بن عمار حدثنا بشير بن طلحة الخزامي عن خالد بن دريك عن يعلى بن منبه رفع الحديث إلى رسول الله ﷺ قال : ينشيء الله عز وجل سحابة لأهل النار سوداء مظلمة ويقال يا أهل النار أي شيء تطلبون ؟ فيذكرون بها سحاب الدنيا فيقول نسأل بارد الشراب فتمطرهم أغلالاً تزيد في أغلالهم وسلاسل تزيد في سلاسلهم وجمراً يلهب النار عليهم» هذا حديث غريب . وقوله تعالى : ﴿ثم قيل لهم أينما كنتم تشركون من دون الله ؟﴾ أي قيل لهم اين الأصنام التي كنتم تعبدونها من دون الله هل ينصرونكم اليوم ﴿قالوا ضلوا عنا﴾ أي ذهبوا فلم ينفعونا ﴿بل لم نكن ندعو من قبل شيئاً﴾ أي جحدوا عبادتهم كقوله جلت عظمته ﴿ثم لم تكن فتنتهم الا ان قالوا والله ربنا ما كنا مشركين﴾ ولهذا قال عز وجل ﴿كذلك يضل الله الكافرين﴾ . وقوله ﴿ذلكم بما كنتم تفرحون في الأرض بغير الحق وبما كنتم تمرحون﴾ أي تقول لهم الملائكة هذا الذي أنتم فيه جزاء على فرحكم في الدنيا بغير حق ومرحكم وأشركم وبطركم ﴿ادخلوا ابواب جهنم خالدين فيها فبئس مثوى المتكبرين﴾ أي فبئس المنزل والمقبل الذي فيه الهوان والعذاب الشديد لمن استكبر عن آيات الله واتباع دلائله وحججه ، والله أعلم .

فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٧٧﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِىَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ فَإِذَا جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ قُضِىَ بِٱلْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٧٨﴾

يقول تعالى آمراً رسوله ﷺ بالصبر على تكذيب من كذبه من قومه فإن الله تعالى سينجز لك ما وعدك من النصر والظفر على قومك وجعل العاقبة لك ولمن اتبعك في الدنيا والآخرة ﴿فإما نرينك بعض الذي نعدهم﴾ أي في الدنيا وكذلك وقع فإن الله تعالى أقر أعينهم من كبرائهم وعظمائهم أبيدوا في يوم بدر ثم فتح الله عليه مكة وسائر جزيرة العرب في حياته ﷺ وقوله عز وجل ﴿أو نتوفينك فإلينا يرجعون﴾ اي فنذيقهم العذاب الشديد في الآخرة ، ثم قال تعالى مسلياً له ﴿ولقد ارسلنا رسلاً من قبلك منهم من قصصنا عليك﴾ كما قال جل وعلا في سورة النساء ﴿سواء﴾ أي منهم من أوحينا اليك خبرهم وقصصهم مع قومهم كيف كذبوهم ثم كانت للرسل العاقبة والنصرة ﴿ومنهم من لم نقصص عليك﴾ وهم أكثر ممن ذكر بأضعاف أضعاف كما تقدم التنبيه على ذلك في سورة النساء ولله الحمد والمنة . وقوله تعالى : ﴿وما كان لرسول أن يأتي بآية إلا بإذن الله﴾ اي ولم يكن لواحد من الرسل ان يأتي قومه بخارق للعادات إلا أن يأذن الله له في ذلك فيدل ذلك على صدقه فيما جاءهم به ﴿فإذا جاء أمر الله﴾ وهو عذابه ونكاله المحيط بالمكذبين ﴿قضي بالحق﴾ فينجي المؤمنين ، ويهلك الكافرين ولهذا قال عز وجل ﴿وخسر هنالك المبطلون﴾ .

ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمَ لِتَرْكَبُوا۟ مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَلِتَبْلُغُوا۟ عَلَيْهَا حَاجَةً فِى صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٨٠﴾ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَأَىَّ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ ﴿٨١﴾

يقول تعالى ممتناً على عباده بما خلق لهم من الانعام وهي الإبل والبقر والغنم فمنها ركوبهم ومنها يأكلون ، فالابل تركب وتؤكل وتحلب ويحمل عليها الأثقال في الاسفار والرحال الى البلاد النائية ، والاقطار الشاسعة ، والبقر تؤكل ويشرب لبنها وتحرث عليها الارض ، والغنم تؤكل ويشرب لبنها والجميع تجز أصوافها وأشعارها وأوبارها فيتخذ منها الاثاث والثياب والامتعة كما فصل وبين في أماكن تقدم ذكرها في سورة الانعام وسورة النحل وغير ذلك ولذا قال عز وجل ههنا ﴿لتركبوا منها ومنها تأكلون * ولكم فيها منافع ولتبلغوا عليها حاجة في صدوركم وعليها وعلى الفلك تحملون﴾ وقوله عز وجل وعلا ﴿ويريكم آياته﴾ أي حججه وبراهينه في الآفاق وفي أنفسكم ﴿فأي آيات الله تنكرون﴾ اي لا تقدرون على إنكار شيء من آياته إلا أن تعاندوا وتكابروا .

أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوٓا۟ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُوا۟ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾

يخبر تعالى عن الأمم المكذبة بالرسل في قديم الدهر وماذا حل بهم من العذاب الشديد مع شدة قواهم وما أثروه في الأرض وجمعوه من الأموال فما أغنى عنهم ذلك شيئاً ولا رد عنهم ذرة من بأس الله وذلك لأنهم لما جاءتهم الرسل بالبينات ، والحجج القاطعات ، والبراهين الدامغات ، لم يلتفتوا إليهم ولا أقبلوا عليهم واستغنوا بما عندهم من العلم في زعمهم عما جاءتهم به الرسل قال مجاهد : قالوا نحن أعلم منهم لن نبعث ولن نعذب وقال السدي : فرحوا بما عندهم من العلم

بجهالتهم فأتاهم من بأس الله تعالى ما لا قبل لهم به ﴿وحاق بهم﴾ أي احاط بهم ﴿ما كانوا به يستهزئون﴾ أي يكذبون ويستبعدون وقوعه ﴿فلما رأوا بأسنا﴾ أي عاينوا وقوع العذاب بهم ﴿قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين﴾ اي وحدوا الله عز وجل وكفروا بالطاغوت ولكن حيث لا تقال العثرات ولا تنفع المعذرة وهذا كما قال فرعون حين أدركه الغرق ﴿آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين﴾ قال الله تبارك وتعالى : ﴿الآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين﴾ أي فلم يقبل الله منه لأنه قد استجاب لنبيه موسى عليه الصلاة والسلام دعاءه حين قال ﴿واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم﴾ وهكذا قال تعالى ههنا ﴿فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا سنة الله التي قد خلت في عباده﴾ أي هذا حكم الله في جميع من تاب عند معاينة العذاب أنه لا يقبل ولهذا جاء في الحديث «إن الله تعالى يقبل توبة العبد ما لم يغرغر» أي فإذا غرغر وبلغت الروح الحنجرة وعاين الملك فلا توبة حينئذ ولهذا قال تعالى : ﴿وخسر هنالك الكافرون﴾ .

سورة فصلت

ترتيبها ٤١ — آياتها ٥٤

بسم الله الرحمن الرحيم

حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢﴾ كِتَٰبٞ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا لِّقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ﴿٣﴾ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا فَأَعۡرَضَ أَكۡثَرُهُمۡ فَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ ﴿٤﴾ وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٞ وَمِنۢ بَيۡنِنَا وَبَيۡنِكَ حِجَابٞ فَٱعۡمَلۡ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ﴿٥﴾

يقول تعالى : ﴿حم تنزيل من الرحمن الرحيم﴾ يعني القرآن منزل من الرحمن الرحيم كقوله ﴿قل نزله روح القدس من ربك بالحق﴾ وقوله ﴿وإنه لتنزيل رب العالمين * نزل به الروح الامين * على قلبك لتكون من المنذرين﴾ وقوله تبارك وتعالى : ﴿كتاب فصلت آياته﴾ أي بينت معانيه وأحكمت احكامه ﴿قرآناً عربياً﴾ أي في حال كونه قرآناً عربياً بيناً واضحاً فمعانيه مفصلة وألفاظه واضحة غير مشكلة كقوله تعالى : ﴿كتاب احكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير﴾ اي هو معجز من حيث لفظه ومعناه ﴿لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد﴾ وقوله تعالى : ﴿لقوم يعلمون﴾ أي إنما يعرف هذا البيان والوضوح العلماء الراسخون ﴿بشيراً أو نذيراً﴾ أي تارة يبشر المؤمنين وتارة ينذرالكافرين ﴿فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون﴾ أي أكثر قريش فهم لا يفهمون منه شيئاً مع بيانه ووضوحه ﴿وقالوا قلوبنا في أكنة﴾ أي في غلف مغطاة ﴿مما تدعونا إليه وفي آذاننا وقر﴾ أي صمم عما جئتنا به ﴿ومن بيننا وبينك حجاب﴾ فلا يصل إلينا شيء مما تقوله ﴿فاعلم إننا عاملون﴾ أي اعمل أنت على طريقتك ونحن على طريقتنا لا نتابعك ، قال الإمام العالم عبد ابن حميد في مسنده : حدثني ابن أبي شيبة حدثنا علي بن مسهر عن الأجلح عن الزيال بن حرملة الأسدي عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال : اجتمعت قريش يوماً فقالوا انظروا أعلمكم بالسحر والكهانة والشعر فليأت هذا الرجل الذي فرق جماعتنا وشتت امرنا وعاب ديننا فليكلمه ولننظر ماذا يرد عليه فقالوا ما نعلم أحداً غير عتبة بن ربيعة ، فقالوا أنت يا أبا الوليد فأتاه عتبة فقال : يا محمد أنت خير أم عبد الله ؟ فسكت رسول الله فقال أنت خير أم عبد المطلب ، فسكت رسول الله ﷺ فقال إن كنت تزعم ان هؤلاء خير منك فقد عبدوا الآلهة التي عبدت وإن كنت تزعم انك خير منهم فتكلم حتى نسمع قولك ، إنا والله ما رأينا سخلة قط أشأم على قومك منك ، فرقت جماعتنا وشتت أمرنا ، وعبت ديننا وفضحتنا في العرب ، حتى لقد طار فيهم أن في قريش ساحراً وان في قريش كاهناً والله ما ننتظر إلا مثل صيحة الحبلى أن يقوم بعضنا الى بعض بالسيوف حتى نتفانى ، أيها الرجل إن كان إنما بك الحاجة جمعنا لك حتى تكون أغنى قريش رجلاً واحداً ، وإن كان إنما بك الباءة فاختر أي نساء قريش شئت فلنزوجك عشراً ، فقال رسول الله ﷺ «فرغت» قال نعم ، فقال رسول الله ﷺ : ﴿بسم الله الرحمن الرحيم ، حمٓ تنزيل من الرحمن الرحيم- حتى بلغ - فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود﴾